المد الصليبي في بلاد الريف وظهور الزوايا الدينية من خلال فصل من كتاب "الزوايا الدينية بالمغرب" لميشو بيلر[1].

د. محمد حماس*

تقديم: ظلت بلاد الريف، شمال المغرب الأقصى، منيعة محصنة في وجه الأجنبي الدخيل، ومرد ذلك بالدرجة الأولى لطبيعة ساكنة الريف المحافظين والمنغلقين على ذاتهم المحافظة، ثم الجغرافية الوعرة لمجال استقرارهم الترابي، كما يمكن اعتبار تكالب العديد من الشعوب على أراضيهم حافزا لمقاومة كل دخيل بعنف وتمنع. وقد ساهم في الاهتمام المتزايد ببلاد الريف موقعها الجغرافي كممر نحو البلاد الإيبيرية بسبب إطلالها على البحر الأبيض المتوسط وانفتاحها على واجهة المغرب الأوسط، لكن هذا الانغلاق قابله انفتاح من نوع خاص، هو انفتاح على المرابطين ورجال الزوايا، حيث وجد هؤلاء مرتعا لأفكارهم بأراضي الريف لقيام عدد من الزوايا منها الخمليشية والعليوية والقادرية والدرقاوية وغيرها ممن أضحى لها صيت أثر في عدد من مجريات التاريخ السياسي لبلاد المغرب الأقصى، وأنجبت كيانات سياسية، منها السعديين...

استمر هذا الانغلاق بشكل أكبر في نهاية الفترة الحديثة وبداية الزمن المعاصر حيث وجد المستكشفون، الذين أوكل إليهم إنجاز دراسات عن البلاد المراد احتلالها، صعوبة كبيرة في اختراق مجال الريف الذي لم يستطع الصمود كثيرا أمام الأطماع الأجنبية التي ظلت تبحث عن موطئ قدم لها بالريف، خاصة الإسبان والفرنسيين، وقد استعان المعمر بهذه الزوايا لضبط ساكنة الريف وترويضهم للسيطرة على أراضيهم، فكان الاهتمام كبيرا بمرافئ الحسيمة ومليلة كمركزين تجاريين.

تحولت الزوايا إلى رباطات ومصدر لشرعية المخزن مثل الزاوية الوزانية، ثم كإمارة مثل تازروالت، أو مؤسسة سياسية قائمة مضادة لدار المخزن مثل الدلائية... لهذا عمل كل من المخزن والمستعمر على احتواء هذه الزوايا لما كان لها من تأثير في الأوساط الشعبية. لهذا جاء كل تدخل تحت غطاء ديني، فكانت الحملات صليبية كاثوليكية تستهدف سواحل بلاد البربر،

* أستاذ باحث في تاريخ بلاد كرط/الريف الشرقي- كلية الآداب- جامعة ابن طفيل القنيطرة- المغرب.

فكان مخطط الكنيسة هو توزيع ما أسموه بـ"العالم غير المسيحي" بين الإسبان والبرتغال، وكانت بلاد الريف أهم الأراضي التي استهوت الأجنبي عبر كل العصور.

أمام هذا التوغل الأجنبي، تحت المظلة الصليبية، لم يكن لدار المخزن أي رد فعل إيجابي للدود عن أراضي الريف، حتى أنه لا أثر للدولة السعدية في بلاد الريف خلال فترة حكمها عدا مقاومة الريفيين وتصديهم لكل دخيل، حيث تجلى أن رجال الزوايا والرباطات وكل ذلك المد الصوفي كان له أثر سلبي في تمهيد غزو بلاد الريف وإخضاعها للقوى الأجنبية المتنافسة وقبلها لدار المخزن، مقابل استمرار مقاومة عنيفة من لدن ساكنة الريف.

جاءت الحملات الصليبية، على سواحل بلاد البربر، من أجل محاربة القراصنة المسلمين. ومن جهة ثانية، للاستحواذ على خيرات تلك السواحل، علما أن المنافسة كانت على أشدها بين الإسبان والبرتغال، حيث كان المستفيد الأكبر هو الإسبان، برعاية من البابا كاليكست الثالث (Calixte III) العام 1457م.

أمام هذا التطاحن بين هاتين الدولتين الكاثوليكيتين، ولتفادي أي شكل من التنافس، أقدم البابا أليكساندر الرابع (Alexandre VI) على لعب دور الوسيط بين الإسبان والبرتغال، فجمع بين الطرفين المتنازعين في لقاء عرف بمحادثات "توردي سيلاس" (Tordesillas) سنة 1494 أسفرت عن إنشاء اتفاقية بينهما يتم بموجبها توزيع العالم غير المسيحي وثرواته بين الإسبان والبرتغال. لكن سرعان ما برز حدث مؤثر جديد زاد من تعقيد الأمور بالمنطقة ألا وهو الأتراك سنة 1517، فبعد استيلاء الأتراك على الجزائر وتلمسان أصبحوا يتطلعون نحو التراب المغربي والحصون القائمة ضد المسيحيين في بلاد الريف وفي حوض كرط، وهي الحصون التي شيدت لغرض حماية فاس من هذا الخطر الجديد كذلك.

معلوم أيضا أن ظهور السعديين كان سنة 1510 في درعة والسوس مع محمد القائم بأمر الله، ثم من بعده ابنه محمد الشيخ المهدي الذي استحوذ على فاس سنة 1550 حيث تمكن من إسقاط آخر ملوك بني مرين مولاي بوحسون البادسي الوطاسي[2]، فرغم الدعم التركي لهذا الملك إلا أن محمد الشيخ تمكن من تنحيته بشكل نهائي واستقر بفاس سنة 1554.

لقد عرف المغرب التشرذم في العهد السعدي، بحسب الاستعلامات البرتغالية خلال سنة 1585، فأضحى موزعا بين ثمانية ممالك منها مملكة فاس تضم: الهبط والريف وكرط والسوس.

هكذا شهدت فترة حكم الملك السعدي مولاي عبد الله الغالب بالله أحداثا خطيرة، وقعت هذه الأحداث في الريف، وقد سكت عن ذكرها المؤرخون العرب، فقد شهدنا احتلال حجر باديس (Penon de Velez) قرب باديس سنة 1508 من طرف الإسبان ليتم إجلاؤهم منها سنة 1520، ثم إن الأتراك ظلت سفنهم تتردد على ميناء باديس لينتهي بهم المطاف إلى الاستقرار هناك بعد أن بسطوا نفوذهم على الجزائر وتلمسان، لا نعلم إن اكتفوا بالسيطرة على حجر باديس أم استقروا على سواحل الريف؟ ومتى استقروا هناك؟

في سنة 1558 زحفت الجيوش التركية على فاس يقودها الحسن[3] نجل خير الدين فتصدى لهم الغالب بالله وألحق بهم الهزيمة عند واد اللبن[4]، أحد روافد واد يناون، لكن المؤرخين لم يتحدثوا عن هذه الجيوش التركية إن هي قدمت من تلمسان أم من باديس، الشيء المؤكد هنا أنهم فروا عبر الجبال نحو باديس التي كانت محتلة من طرف الأتراك(حسب نزهة الحادي)[5]، لهذا قام السلطان الغالب بالله بتسليم حجر باديس للإسبان سنة 1560 شريطة أن يتولوا إجلاء الأتراك وبالتالي يتخلص منهم. إن تكتم المؤرخين العرب عن تخلي المسلمين عن هذه البقعة للنصارى إنما هو تفاديا لتلطيخ سمعة السلطان مولاي عبد الله الغالب بالله، ثم إن تفويت جزيرة الحسيمة (حجرة نكور)، والتي كانت دائما مطلبا إسبانيا على خلفية حق الحيازة بعد الامتياز الذي حظي به رونالد فريجوس (Roland Fréjus)[6] سنة 1666 في خليج الحسيمة من طرف مولاي رشيد[7]، وهو الأمر الذي سنعرض له عند الحديث عن فترة حكم هذا الأمير.

لا نكاد نعثر على أثر في تاريخ المغرب يتناول بالذكر بلاد الريف تحت سلطان الملوك السعديين الآخرين، لكن في المقابل نجد هذا الأثر خلال بدايات الدولة العلوية التي ستحل محل السعديين.

في الوقت الذي توغل فيه السعديون في مراكش والعلويون في تافيلالت، كان المغرب يمر بظروف حرجة أدت إلى نشوب العديد من المناوشات والاحتجاجات الداخلية، خاصة حركة الصلحاء الدلائيين[8] الذين كان سعيهم وراء الحصول على إحدى الممالك الصنهاجية بالأطلس المتوسط ثم ظهور محمد العياشي[9] في نفس الفترة معلنا الجهاد من سلا إلى العرائش، والحاج كروم[10] في مراكش، وأبوحسون السملالي[11] بالسوس، وأبو العباس الخضر غيلان[12] بين القصر الكبير وأصيلة وتطوان، فكيف أضحى الريف في خضم هذا الاضطراب؟ على الأقل، بحسب

ما لدينا من معطيات، إن جزء من الريف كان تحت إمرة الشيخ عراص[13] قائد تمسمان[14] وبطوية.

إن مولاي رشيد بن الشريف، الذي يمكن اعتباره أول سلطان للسلالة العلوية، قد وجد نفسه في خضم هذه الاضطرابات معزولا شرق المغرب يبحث عن الدعم والأنصار ليتمكن من الوصول إلى سدة الملك.

لكن المؤرخين العرب سكتوا عن بدايات هذه المملكة التي هي أيضا بداية السلالة العلوية، وكأن تناولهم لهذه التفاصيل سيقلل من قدسية السلطان وجلالته، فقط المؤرخون الأوروبيون القدامى هم من أثار هذه الوقائع التي نعثر عليها هنا وهناك، وهي معطيات قليلة لكنها تسمح بأخذ فكرة عن وضعية منطقة الريف في ظل الاضطراب المغربي في تلك الفترة.

من خلال كتاب مُوَاتْ Mouette[15] المنشور سنة 1683م، فإن مولاي رشيد قد لجأ إلى قبيلة كبدانة[16] هاربا- ومن غير أن يتفطن الدلائيون لذلك- من أخيه مولاي امحمد الذي تمت مبايعته بسجلماسة، كان الكبدانيون تحت سلطة المدعو حالي سليمان[17] فاستغل مولاي رشيد حسن ضيافة هذا الرجل لتثبيت سلطته بعدما نهب منزل اليهودي بن مشعل[18]، وبالتالي قتله ثم تحالف مع الشيخ اللواتي حاكم وجدة فانقلب ضد حاكم كبدانة ليستحوذ على ممتلكاته وبلاده ثم قتله ليزحف بعدها في اتجاه أخيه مولاي امحمد فيهزمه ويقتله في سهل أنـــكَـــاد[19] بداية غشت 1664م، ثم أخضع بلاد تمسمان بعد أن فر قائدها محمد العراص نحو حجر باديس طالبا الحماية الإسبانية مخلفا وراءه نجله عبد العزيز بتمسمان فقام مولاي رشيد بسجنه وحمله إلى تازى التي دخلها دون مقاومة وصولا إلى فاس، ثم أطلق سراحه فيما بعد ليتزوج أخته بفاس وقد زفت إليه في موكب عظيم ثم عفا عن والده محمد العراص الذي استرجع سلطانه على تمسمان.

قد تحمل هذه المعطيات التي أوردها Mouette بعض المغالطات لكنها سمحت بإثبات حقيقة أن السلطان مولاي رشيد قد لجأ إلى الريف حيث تمكن من توفير حاجياته من الرجال والمال.

لقد استفادت قبيلة العراص من امتيازات جمة وتولت مناصب هامة في سلك السلطة واستمرت في موقعها إلى غاية نهاية حكم مولاي رشيد وتولي مولاي إسماعيل، لكن في سنة

1676م غدروا بالسلطان مولاي إسماعيل لصالح ابن شقيقه أحمد بن محرز[20] فأبادهم وصادر ممتلكاتهم.

حصل حدث ذو أهمية قصوى عند بداية حكم مولاي رشيد وقد ساهم هذا الحدث إلى حد ما، في حمله إلى سدة الحكم، يتعلق الأمر بالزيارة التي تلقاها مولاي رشيد من رولاند فريجوس[21] سنة 1666م بتازا حاملا إليه رسالة من الملك لويس الرابع عشر[22]، لكن Mouette يعتبر رولاند فريجوس مجرد محتال وأن زيارته كانت سنة 1670م وروايته تدفع للاعتقاد أن السلطان استقبل مبعوث ملك فرنسا بفاس، هذه الزيارة تم اعتبارها بمثابة سفارة ارتبطت بتاريخ الريف وقد ارتبطت بالمكان الذي حل به رولاند فريجوس، أي المزمة (الحسيمة)،أما كونه قطع جزءا من تراب الريف ليصل إلى السلطان مولاي رشيد بتازا، فهو دليل على خضوع الريف لسلطة مولاي رشيد.

في سنة 1662م سعى مفاوضان من مدينة مارساي، هما ميشال (Michel) ورونالد فريجوس إلى طرح فكرة إقامة مؤسسة تجارية على طول الساحل الشمالي المغربي بحيث تكون شبه جزيرة الحسيمة مركزا لعملياتهما التجارية، هكذا وبتاريخ 19 نونبر 1664م حصل رونالد فريجوس على دعم قنصل الدولة الفرنسية بمدينة البوزيم (Albouzème)[23]، كما حصل على قرار من المجلس الملكي وكذا رسائل ضريبية تتيح لهذه الشركة حق التملك التجاري الدائم بهذه المدينة، كما يمكن لهذه الشركة عقد الاتفاقيات والصفقات وغيرها مع ديوان المدعو البوزيم باسم مملكة فاس، مقابل هذا العطف الملكي سوف يقوم رونالد فريجوس بإرسال عشرة من أجود الخيول العربية سنويا للملك الفرنسي امتنانا واعترافا بفضله وجميله عليه.

لقد فكر الفرنسيان، قبل عشر سنوات، في إقامة قنصلية بالحسيمة كان على رأسها السيد لامبيرت (Lambert) إلا أنه لم يبل حسنا، حتما بسبب الدسيسة التي تعرض لها من طرف إحدى الشركات في ملكية أنجليزي وفرنسيان وربما بعض الهولنديين، هذه الشركة حصلت على ترخيص للتفاوض من طرف القائد محمد عراص حاكم تمسمان، لكن يبدو أن فريجوس كان يسعى للتفاوض مع نفس القائد محمد عراص، وعندما بلغ مدينة الحسيمة سنة 1666م تزامن تواجده هناك مع الهجوم الذي تعرض له القائد محمد العراص ولم يكن مولاي رشيد قد تزوج من ابنته بعد، وتم طرده من تمسمان وبطوية وبالتالي فراره نحو الإسبان بحجرة باديس كما سبق أن ذكرنا وقد تم تعويضه بشخص يدعى الشيخ عامر، ربما يتعلق الأمر بالقائد عمر بن

حدو البطيوي[24] الذي توفي سنة 1681م في عهد مولاي إسماعيل بعد أن سيطر على المهدية. كل هذا يؤكد حقيقة تواجد هذه العائلة الريفية الكبيرة في خدمة المخزن والدولة العلوية الحاكمة.

غادر فيرجوس المزمة في 19 أبريل 1666م مرفوقا بالترجمان اليهودي المغربي يعقوب باريونت الذي رافقه من مليلة، ثم السيدة دولاستر(MM. De Laster)، ودو لادا (de Ladda)، وفانسوندفيد (Vincent David)، والجراح فرانسوا بوص (François Bosse، ثم كان إلى جانبه الشيخ عامر وبعض الخدم، هكذا بلغ مدينة تازى في 26 أبريل مرورا بنكور[25] وبني بويعقوب[26] وثافرسيت وسواكين[27] وأرض لم أتمكن من تحديدها سماها ثيسيراك[28]،فتم استقباله من طرف مولاي رشيد في إطار لقاء رسمي وسلمه رسالة من الملك لويس الرابع عشر وقد أخذ جوابا للملك، لكن يبدو أن فريجوس لم يوفق كثيرا في تفاوضه، ومع ذلك فقد اعتبر مولاي رشيد رسالة ملك فرنسا بمثابة عرض ذي أهمية كبيرة باعتبارها اعترافا من طرف عاهل أوروبي له مكانة عظيمة سوف تدعمه لا محالة ضد ما تقدمه إنجلترا من مؤازرة لغيلان والذي ينعته مولاي رشيد بأمير الهمجية الغربية، ومما زاد من إحباط رولاند فريجوس هو تراجع الإسبان عن الاتفاق المبرم حول جزيرة الحسيمة سنة 1560 في عهد الملك السعدي الغالب بالله لإجلاء الأتراك، هكذا تبخرت شركة البوزيم سنة 1670.

في سنة 1699 تجلت محاولة جديدة للتواجد الفرنسي على سواحل الريف قادها كل من دومينيك فيليب (Dominique Philippe)، وسافولي (Savelly)، وفرانسوا جوليان (François Jullien) الذي كان يشغل منصب قنصل قديم بحلب، كانت هذه العملية بدعم من ملك فرنسا عبر رسائل مؤرخة بمارلي (Marly)[29] في 4 نونبر 1699، تخول هؤلاء المبعوثين إنشاء مؤسسة في مدينة أربوسان (Arbosein)، أي المزمة، وفي جزيرة البرهان[30] الواقعة بسواحل بلاد البربر وكذا دولة ملك المغرب لمدة خمس عشرة سنة، لكن طموحات فرنسا هذه سرعان ما هزتها رياح انتصار الإسبان في حرب الخلافة سنة 1701.

شكل الريف خلال عهد مولاي إسماعيل مشتلا حقيقيا للمجاهدين الذين كانوا في خدمة السلطان من أجل استرجاع الثغور المحتلة من طرف النصارى كان على رأس هؤلاء الريفيين المجاهدين زناتة أولاد الحمامي وبطوية الذين بثمسمان وعمر بن حدو[31] وأخوه أحمد بن حدو وابن أخيهم علي بن حدو، ومعلوم أن أحفاد عمر بن حدو لا يزالون ممثلين إلى الآن من طرف

أولاد بن عبو الذين بطنجة، أما أولاد علي بن عبد الله فيمثلهم أولاد بن عبد الصادق الذين يرأسهم في الوقت الراهن الحاج عبد السلام بن عبد الصادق الذي ظل عاملا على طنجة عددا من السنين ليتولى بعدها منصب قائد بالشاوية.

هكذا استطاع الجيش الريفي استرداد المهدية سنة 1681 بقيادة عمر بن حدو الذي توفي أياما بعد ذلك ليخلفه قائد القصر الكبير والغرب.

في سنة 1684 دخل الريفيون طنجة يقودهم الباشا علي بن عبد الله[32]، وفي سنة 1689 استرجعوا العرائش بقيادة أحمد بن حدو وأصيلة سنة 1690، فلا تزال إلى الآن القبة التي دخلها أحمد بن حدو البطيوي بسهل الهريديين عند واد امدا بالغرب والتي يحج إليها الزوار خلال موسم العنصرة[33] كل 24 يونيو من كل سنة.

لقد تم تعمير مدن المهدية وطنجة والعرائش وأصيلة بساكنة الريف الذين استقروا أيضا بفاس، وبعث مولاي إسماعيل عددا منهم ليعمروا مدينة تارودانت سنة 1687 حيث استولى عليها فأضحت خالية من السكان.

في سنة 1692 توفي الباشا علي بن عبد الله قائد الجيش الريفي[34] وهو القائد الذي شغل منصب أمير سواحل إفريقيا ونائب ملك الغرب وعامل على إقليم الريف وكافة تراب الساحل المتوسطي من الجزر الجعفرية إلى مدينة سلا، فخلفه ابنه أحمد الذي اشتهر بالدور الذي لعبه خلال الاضطرابات التي شهدتها البلاد عند وفاة مولاي إسماعيل وتصديه لمولاي عبد الله، لقد استقطب لثورته كل الريف وجبالة وعددا كبيرا من القبائل العربية إلى أن قتله مولاي عبد الله قرب القصر الكبير سنة 1743، ومعلوم أن أحمد بن علي بن عبد الله كان يؤازر مولاي المستضيء ومولاي زين العابدين[35] ضد شقيقهما مولاي عبد الله.

في سنة 1766، قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتعيين نجله مولاي علي، خليفة له على فاس، وقبائل جبالة والريف، ثم شن عليهم حملة تمشيطية لم ينج منها سوى قبيلة كبدانة.

أما السلطان مولاي اليزيد الذي لم تتجاوز ولايته السنتين فلم يول اهتماما لمنطقة الريف عكس خلفه مولاي سليمان الذي شن عدة حملات ضد الريف لاستخلاص الضرائب ومنع قبائل الريف من بيع محاصيل القمح للنصارى، والواقع أن الريف لا ينتج كل تلك الكمية من الحبوب الذي تبيح تصديره للخارج، فهو بالكاد يحقق اكتفاء ذاتيا لساكنة الريف، الغالب أن

فائض الحبوب يأتي من حقول القبائل الواقعة على السهول، فكانت تلجأ لبيعه بعيدا عن أعين رقابة المخزن السلطاني باعتبار أن كل الموانئ كان يحتكرها السلطان مولاي سليمان.

إن تجارة الحبوب هذه كانت تتم ضمن سوق سوداء، الشيء الذي دعا السلطان مولاي سليمان لتنظيم أربع حملات عسكرية ضد الريف للقضاء على هذه التجارة، لكن يبدو أن تلك الحملات لم تأت بالنتائج المرجوة منها كما أرادها السلطان، كانت الحملة الأولى سنة 1802 تحت إمرة أخيه عبد القادر والثانية والثالثة سنة 1812، فكان من نتائج الحملة الأخيرة أن خلع قائد تطوان والريف عبد الرحمان عشاش ووضع مكانه امحمد السلاوي البوخاري مستغلا بذلك العداوة القائمة بين بخارى وجيش الريف حتى يتحلى هذا الخليفة بالمزيد من القسوة تجاه الريفيين، لكن حب المال كان أقوى عند الخليفة الجديد من الواجب ومن العشائرية، فبلغ إلى علم السلطان أن الريفيين تمادوا في تجارتهم وبيعهم الحبوب للنصارى، بل وأيضا الماشية ومنتوجات أخرى، فأقدم سنة 1813 على نصب منشئاته الحربية بموانئ الريف للاستيلاء على بواخر النصارى ثم قاد جيشه برا معلنا حملة واسعة لنهب تراب الريف فأحرق مدنه وقراه وهدم صوامعه وخلع امحمد السلاوي وعوضه بعامل ريفي هو أحمد بن عبد الصادق بن أحمد بن علي الحمامي حفيد العامل الأول لمدينة طنجة بعد رحيل الأنجليز.

نلاحظ إذن، أن سعي أهل الريف لتحقيق استقلال تجاري يعود لزمن بعيد، ونلاحظ أيضا القمع الشديد الذي كانوا يواجهون به من طرف الملوك، فعندما مات السلطان مولاي سليمان سنة 1822 كان الريف لا يزال تحت إمرة أحمد بن عبد الصادق الذي سعى إلى بيعة سيدي سعيد بن يزيد ابن عم مولاي عبد الرحمان بدعم من درقاوة، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، فعاد القائد أحمد إلى الريف وتم تعويضه سنوات بعد ذلك بريفي آخر هو سي بوسلهام أستوت، والذي كان يحكم كل الشمال المغربي بداية من نهر سبو منذ وصول الفرنسيين إلى الجزائر، وهو الذي وقع معاهدة السلم بطنجة بعد هزيمة إيسلي سنة 1844،لكننا لا ندري كيف كان رد فعل قبائل الريف آنذاك بسبب الاضطرابات التي خلفتها هزيمتنا لهم وكذا مؤامرات الأمير عبد القادر، فقد قامت قبائل الريف الشرقي بإرسال وحدات لجيش السلطان مولاي عبد الرحمان وقد أكدت الأحداث الموالية أن الأمير عبد القادر تخلى عنه بعض معاونيه الذين كانوا بجانبه بالريف وأنه أضحى غير مرغوب فيه وخارجا عن القانون بالجزائر وكذا بالمغرب وذلك حسب المادة 4 من معاهدة السلام، لهذا لجأ عبد القادر إلى أولاد سيد الشيخ[36] ليعود إلى المغرب عبر

فجيج ويلتحق بقبيلة قلعية بالريف، ربما ليتخلص من ملاحقة فرنسا ومولاي عبد الرحمان له فيصل إلى مليلة، لكن أمله خاب فلم يجد الترحاب المتوخى من الإسبان فانسحب إلى تافرسيت حيث يقوم ضريح سيدي عبد القوي الذي تزعم عائلة عبد القادر أنها تنحدر منه، لكن مولاي عبد الرحمان أرسل في أثره جيشا يقوده محمد الأحمر من بني مالك بالغرب. فاستطاع الريفيون إلحاق الهزيمة بالجيوش السلطانية، وقتل القائد محمد الأحمر. هكذا كسب الأمير ثقة الريفيين ليدافعوا عنه. وهو الشيء الذي دفع للاعتقاد أن الأمير عبد القادر تمكن من خلق حركة لصالحه بالريف. فما كان من السلطان إلا أن نظم حملة ثانية ضده، وجعل على رأسها ولديه، سيدي محمد ومولاي أحمد، وقيادة باشا شراكَـة، با محمد الشركَـي. فأخذت الجيوش السلطانية مواقعها بقصبة سلوان، واستطاعت فك ذلك التحالف الذي أنشأه عبد القادر الجزائري وسط قبائل الريف، فقد كان لحضور ولدي السلطان وكذا دعم با محمد الشركَـي ذلك التأثير المعنوي الكبير لدحض طموحات عبد القادر الجزائري رغم انتصاره الحديث بتافرسيت، لقد كانت تنقصه الموارد الأساسية لإقناع الريفيين بقضيته وهو ذات النقص الذي سيعاني منه نجله عبد المالك بعد خمس وسبعين سنة من ذلك. هكذا وبعد مفاوضات غير مجدية مع الجيش السلطاني غادر الأمير عبد القادر في اتجاه الشرق نحو الضفة الأخرى لنهر ملوية عبر ممر شراعة بعد هزيمته من طرف الجيش السلطاني سنة 1847 حيث لم يتبق معه سوى بعض الفرسان.

بعد هذه الوقائع تم خلع الحاج بوسلهام أستوت وتعويضه بحاكم جديد للريف هو سي محمد الخطيب التطاوني إلى غاية 1859م، أي حين حرب تطوان (1859/1860م) حيث سيستعد الريفيون للجهاد ضد الإسبان يقودهم سيدي محمد بن الصديق الخمليش، فنظموا هجماتهم ضد العدو رغم توقيع اتفاق السلام بين مولاي العباس والجنرال أودونيل (O'Donnell)[37].

في سنة 1861، في عهد سيدي محمد، تمت تولية نجل أحمد بن عبد الصادق على رأس حكومة الريف وكان يسمى عبد الصادق مثل جده، استقر بالريف بقصبة جنادة. وفي سنة 1875 في عهد مولاي الحسن، أصبح حاكما على طنجة، أما الريف فتم تقسيمه بين عدة قواد يستقرون بعدد من القصبات بين سلوان وجنادة وسنادة[38]، المهم هو استخلاص الضرائب من قبائل الريف رغم فقرها ولو أن قيمة تلك الضرائب جميعها لا تساوي تكاليف حملة واحدة

للجيوش السلطانية[39]، ثم كان المخزن يغتنم فرصة حضور قايد من الريف إلى القصر بفاس لحثه على تجميع الضرائب وجلبها وبذلك يتحاشى، أي المخزن، شن أية حملة أو عناء للوصول إلى الريف مستغلا بذلك الصراعات التي تنشب بين هذا القائد وذاك وهي نزاعات يكون في كثير من الأحيان المخزن وراء افتعالها، لقد ظل المخزن يستغل الوضع كي يتدخل لفض النزاعات مقابل جلب الضرائب وبالتالي خلق نوع من المنافسة بين قياد منطقة الريف للتسابق في جمع الضرائب، فكلما حضر القايد من الريف إلا وتم الالتفاف عليه وتجريده من الهدايا التي كان ينوي تقديمها للسلطان، فلا تصل حتى لوزرائه، فهي لا تكفي حتى بعض كتابه، فيطوف القايد المسكين بين ردهات مكاتب القصر معرضا نفسه لازدراء بوخارى ولمشاورية ولمساخرية لينتهي به المطاف وسط المخازنية فيمتطي جواده آفلا إلى بلده، طيلة هذه المدة يكون القايد تحت المراقبة ليجد نفسه سجينا داخل مدينة فاس، في هذه الأثناء يظهر أحد كتاب المخزن وكأنه منقذ جاء ليخرج القايد من ورطته وهو كاتب غير ذي قيمة رفيعة متملق يسعى للمكر والدسيسة يتظاهر بالتعاطف مع الريفيين ويدعي خدمتهم فيسعى لكسب حبهم، تقتصر مهمته على التحايل على القواد من هذا النوع فيقترح على الواحد منهم الحلول المناسبة للتخلص من هذه الوضعية مقابل مبالغ مالية باهظة، في البداية يأخذ القايد لدا أحد اليهود ليجبره على تأدية ديون قواد ريفيين آخرين مع احتساب فوائد خيالية واقتطاعات إلزامية ناهيك عن الهدايا المقدمة للكتاب والوزراء وأخيرا، هدية السلطان التي تكون أقل قيمة، بعد هذا يحظى القايد باستقبال السلطان، أما وقد تم نهب ما كان بحوزته من مال فإنه لم يتبق أمامه سوى العودة إلى دياره حيث سيروي مغامرته وكيف استطاع المثول بين يدي السلطان بطريقة يتوخى من ورائها الإيقاع بأحد غرمائه من القواد لكي يؤدي عنه ما علق في عنقه من ديون متأخرة، هكذا وبهذه الطريقة ظل الريف يحول مبالغ مالية لدار المخزن ويرتفع معدل الفوائد المترتبة على الديون لدا بعض الممولين اليهود مموني القصر.

لكن القواد تراجعوا تدريجيا عن تلك الزيارات فبقيت الديون عالقة دون سداد فوجد الدائنون بفضل السياسة القائمة سبيلا للتجنس وبالتالي لفرض الحماية الفرنسية فظهرت القضية المعروفة بـ"قضية ديون اليهود" والتي حظيت بانشغال دبلوماسيتنا بالمغرب خلال فترة تراوح العشر سنوات اعتقدنا خلالها أنها الوسيلة الناجعة للعمل داخل المغرب، لكن يبدو أن العملية أعطت نتائج عكسية باعتبار أن اليهود المغاربة كانوا يتحلون بصفة المواطن الفرنسي

وبالتالي قامت الحكومة الفرنسية بتحميل مسؤولية ديون اليهود للسلطان وهي الديون المترتبة عن قواد الريف لصالح اليهود، هكذا وبعد مفاوضات ومساومات أفضى الأمر إلى تسديد تلك الديون من طرف السلطان مولاي الحسن.

سوف يكون من نافلة القول الحديث عن العداوات التي ظلت قائمة بين الريفيين وإسبانيي مليلة لأنه طفا على السطح حدث أشد خطورة من غيره لم تشهده المنطقة منذ حرب تطوان، إنه حدث سيدي ورياش[40] الذي استنفر سنة 1893 عشرين ألف جندي من الإسبان وسفارة المريشال مارتنيز كامبوس (Martinez Campos) لدا مولاي الحسن سنة 1894 وهو الشيء الذي سيكلف السلطان تأدية تعويض لإسبانيا قدره 20 مليون والسماح لها بتوسيع تراب مليلة لأن الأمر يتعلق بسيادة المغرب على تراب الريف.

اقترنت بداية حكم مولاي عبد العزيز بالعديد من أحداث القرصنة على طول ساحل الريف منها مهاجمة السفينة الفرنسية (Prosper Corue) سنة 1896 ثم السفينة الإيطالية (Fiducia) سنة 1897، كل ذلك على مرأى من القوى العظمى التي سارعت بإرسال سفنها الحربية إلى ميناء طنجة. فقررت دار المخزن إرسال بعثة عسكرية نحو تراب الريف سنة 1898، ومعلوم أن المخزن ظل دائما يزعم عدم قدرته على ضبط قبائل الريف، لكن ومن المفارقات العجيبة أنه الآن وأمام ضغط الدول الأوروبية نظم حملة عسكرية لإبادة الريفيين بشراسة ووحشية كبيرتين خاصة ضد قبائل بقوية مما حدا بالعديد من هذه القبائل الهرب نحو الجزائر طلبا للحماية الفرنسية.

فبدا جليا أن حكم المخزن قد استتب بالريف، أما وقد اندلعت ثورة بوحمارة سنة 1900 ثم ما أعقبها من مؤامرات سياسية واقتصادية، ستدفع بالنظام لطلب الحماية خلال العشر سنوات القادمة.

في هذه الأثناء سيتم إقحام تاريخ الريف في الأحداث السياسية الراهنة، أي ما تعلق بالمؤامرات الأوروبية من جهة، ثم مؤامرات الأهلي من جهة ثانية، وهو الأمر الذي يتجاوز مجال تحقيقاتنا.

ولاستكمال خلاصة هذا التاريخ الطويل الذي لن يكون مكتملا بأي حال من الأحوال بقي أن أحدثكم بكثير من الاقتضاب عن التأثيرات الدينية بالريف أو على الأقل، كل ما أمكنني تجميعه حول هذا الموضوع.

كما هو معلوم تاريخيا، إن الزوايا الدينية منبعها الزهد الذي يخرج من التصوف، وفي المغرب يمكن الحديث عنها عبر أربعة مراحل:

1. من الجنيد إلى مولاي عبد القادر، حتى بومدين الغوث، من ق 9م إلى ق12م.

2. من بومدين إلى الشاذلي. ق13م.

3. من الشاذلي إلى الجزولي، من ق13م إلى ق15م.

4. من الجزولي حتى يومنا هذا، أي من ق15 إلى ق20م.

لا نعثر على أثر للتربية الصوفية بالريف قبل بومدين. وقد رأينا أن أحد مريديه أبو محمد مزاحم هو أول من أدخل التصوف إلى بلاد الريف[41]، بحيث أسس زاوية ورحل، إلا أن ضريحه لا يزال هناك في الجهة الشرقية لخليج الحسيمة بثمسمان. وقد كان له مريدون منهم أبو زكرياء سيدي مرقد بن عيسى البلندي[42]، وأبو إبراهيم بن إسماعيل بن سعيد الناس، وأبو عبد الله محمد بن دوناس الذي التحق ببني كَميل. كما ترك عددا من الأطفال والأحفاد استمروا في العيش داخل هذه الزاوية. فكان من نتائج هذه الحركة، الإسهام في خلق العديد من الرباطات والزوايا التقليدية التي انتشرت بشكل لم يعرفه أي وقت مضى، فقد كان أتباع هذه الطريقة أو تلك يدركون تماما جذور تلك العادات التي يتبعونها. لقد حظينا منذ مدة، بطنجة، بزيارة للطلبة[43] الريفيين الذين يعرفون المقصد الشريف لصلحاء الريف[44]، الذي نتوفر على نسخة منه وقد جاؤوا للاطلاع عليها. لقد قرؤوها باهتمام شديد، لكن تبين أن اهتمامهم لم يكن بالكتاب في حد ذاته، بل بشجرة أنساب الشرفاء، ليتمكنوا من ربط بعض الشهرة بهؤلاء الصلحاء الريفيين. وهو الأمر الذي يؤكد معرفة هؤلاء الطلبة بجل أماكن هؤلاء الصلحاء الواردة أسماؤهم في كتاب المقصد، الذين لم يكونوا يمثلون بالنسبة إليهم سوى أضرحة مخصصة للزيارة، وفقا للعادة، بفضل ما قدمه الميت من تربية، وفضيلة لمن حوله من الأحياء. يبدو أن الشاذلية[45] انتشرت بالريف حتى قبل ظهور الجزولية[46] إبان الاحتلال البرتغالي خلال ق15م. فرغم الشهرة التي حظي بها مولاي عبد السلام بن مشيش[47]، أستاذ الشاذلي، ورغم الجوار، فلم تنتشر طريقته إلا عند بداية ظهور الوعظ والتحريض على الجهاد. ثم لكي نعثر على شخصية تنتمي للمدرسة الجزولية، لابد من الابتعاد تماما عن الريف، والتوغل في قبيلة مرنيسة[48]، التي كانت ملاذا لسيدي علي بن داوود[49] الذي ارتبط بالجزولي بواسطة مولاي بوشتا صاحب فشتالة[50]، الذي كان تلميذه، إذ لا يزال ضريح سيدي علي بن داوود محل

تقدير بمنطقة الريف، ووجهة العديد من الزوار. هذا الرجل الذي توفي سنة 1613، كان مرافقا لسيدي محمد الحاج البقال[51]، هو الآخر تلميذ لمولاي بوشتى. كان هذا خلال فترة الاضطرابات الداخلية التي عاشها المغرب خلال فترة حكم أحمد المنصور. لهذا جاء تدخل الزوايا في الريف ضد تحركات محمد الشيخ المأمون[52]، نجل أحمد المنصور، الذي استقر بحجر باديس تحت ترحيب الإسبان ضد أخيه زيدان. في هذه الأثناء ظهرت حركة قوية أثارها محمد الحاج أحمد البقال، والتي لها تأثير إلى أيامنا هذه، باسم زاوية أولاد البقال بلحرايـــق[53]، شمال غزاوة[54]، وصولا إلى بلاد الريف.

ثم هناك الزاوية الناصرية، التي كان لها تأثير كبير في منطقة الريف، خصوصا وأن المجاهد علي بن عبد الله الحمامي كان من أتباع هذه الزاوية، هو وجميع أفراد أسرته القاطنين بثمسمان. هذا التأثير لا يزال إلى يومنا عند صنهاجة الذين بالريف، وبالضبط عند أولاد أحمليش من صنهاجة السراير. وحسب موليراس[55] لا تزال هناك آثار باقية لسيدي أحمد بن ناصر بزاوية سيدي يحيى عند بني توزين. وتبقى زاوية شرفاء وزان سنادة[56] ببني بوفراح، من أهم الزوايا دون منافس، أسسها سيدي عبد الله بن إبراهيم بداية القرن 18م، الذي كان يحمل نفس اسم جده مولاي عبد الله الشريف مؤسس زاوية وزان. ثم جاء والده سيدي إبراهيم بن عبد الله الذي دخل وزان. كما كان له إبن آخر يسمى سيدي عبد الجليل بن سيدي إبراهيم بن سيدي عبد الله الذي استقر عند هوارة حيث لا يزال نسله قائما هناك. وتجدر الإشارة هنا أن زاوية سنادة مستقلة عن زاوية وزان، والتي تحتفظ معها ببعض الروابط. رغم هذا فتأثير زاوية وزان يبقى غير كبير بمنطقة الريف أمام ما كانت تقوم به زاوية سنادة، ولو أن سيدي أحمد الوزاني لعب دورا هاما في الأحداث الحالية بالريف، فالتأثير القوي كان لزاوية سنادة التي تنتمي بلا شك للطريقة الشاذلية، أي إلى طريقة مولاي عبد الله الشريف، لكن تبقى زاوية مستقلة، ولو على مستوى الفترة الزمنية. وباختصار فهذه الزاوية توافق أو تخالف زاوية وزان حسب الظروف التي تمليها الامتيازات المادية المتاحة لها من خلال تقاربها مع زاوية وزان.

يبدو أن هذا التباعد والجفاء بين عدد من زوايا الريف والزاوية الرئيسة، ليس ضد زاوية وزان وحدها، بل نجده أيضا بين درقاوة. فعلى سبيل المثال، إن الزاوية الأم لدرقاوة، والمتواجدة في بني زروال، تتصدى للحركة الريفية، عكس فرع درقاوة المتواجدين بتاشـگـان في بلاد غمارة، الذي أسسه الحاج أحمد بن عبد المومن، أحد تلامذة مولاي العربي الدرقاوي، فهم

يساندون الحركة الريفية، أو على أقل تقدير يعادون الأجانب. إن الزاوية الدرقاوية بالريف تستقطب عددا كبيرا من المريدين، وهم موزعون بين هذا الفرع وذاك، وبالتالي فتأثير الزاوية يمكن أن تكون له نتائج عكسية، حسب موقف كل من بوبريح أو تاشـكـان. ثم نذكر هنا بظهور زاوية جديدة هي الزاوية العليوية، التي أسسها أحمد بن مصطفى بن عليوة بمستغانم. وقد استطاعت هذه الزاوية أن تستقطب عددا من أتباع الزاوية الدرقاوية بالريف، سعيا منها لإحداث محاولة خلق حدث سياسي فرنسي، والحقيقة أن الأمر لم يعد مجرد شطحات صوفية إسلامية لا تلائم بلدا أوروبيا في الوقت الراهن. ثم زاوية عيساوة، وجبالة، والتيجانية. فبالنسبة للزاويتين الأولى والثانية، لم يكن لهما تأثير يذكر، أما الثالثة فكانت أكثر أرستوقراطية ليس لها نفوذ بين عامة الناس بالريف. وباستثناء هذه الزوايا، والتي تعتبر زوايا بما للكلمة من معنى، بالريف طبعا، يمكن الحديث عن عائلة كبيرة ينحدر منها عدد من الأولياء، ولها تأثير قوي، خاصة بين صنهاجة، وهي عائلة أخمليش، أو أخمريش، فحسب موليبراس، أخمليش، مفرد إخمليشن، كلمة بربرية تعني الشخص المبارك. وأعتقد أن صيغة الجمع بالبربرية هي إيخمالشن، لكن هذا يبدو غير ذي أهمية. فالزاوية الخمليشية لا وجود لها سواء بالريف أو في أي مكان آخر، حسب معلوماتي. المهم أن أولاد أخمليش يحظون بمكانة مرموقة وسط الريفيين. فهم يعتبرون من الشرفاء، رغم انتمائهم لصنهاجة.

إن الأبحاث التي أجريتها بخصوص أولاد خمليش أوصلتني إلى التساؤل حول حقيقة انحدارهم من شخص واحد أو عدة أشخاص يحملون اسم أخمليش، بحيث حافظ عليه خلفهم. وقد أفضت خلاصات أبحاثي وفق التسلسل الزمني، إلى النتائج التالية:

من بين مريدي عبد العزيز التباع[57]، الذي هو نفسه مريد الجزولي، يوجد أحد الصنهاجيين من أولاد بو زيري بالشاوية، إسمه امحمد بن داوود[58]، توفي ما بين 1524 و1533، وقد ترك من الولد ثلاثة، توجد أضرحتهم بالشاوية: أحمد الطالب بقيصر[59]، ومحمد الكبير في كروطة أولاد صالح[60]. ثم سيدي خمليش في بلاد لمزاب براس العين حيث توجد قبته هناك، فحمل فرع خمالشة إسمه، والذين كانوا يشكلون حوالي خمسين خيمة. من هنا فسيدي بن داوود يعد من الشرفاء الأدارسة، وقبته في تادلة قرب غرم العالم. فهل يمكن اعتبار هذا النسب الشريف لسيدي بن داوود وراء زعم الخمليشيين الريفيين للنسب الشريف؟ هل ينحدرون فعلا من أخمليش نجل سيدي بن داوود، أو من أخمليش آخر؟ لم يكن بوسعي معرفة حقيقة

الأمر، إلا أن الإيجابي في كل هذا هو أنهم جميعهم من صنهاجة. فمنذ عهد سيدي أحمليش، نجل سيدي بن داوود، الذي عاش خلال ق 11م، إلى أيامنا هذه، لا نعثر على عائلة تتحدث عنهم. كل ما عثرت عليه في "سلوة الأنفاس"[61]، هو إسم عليبن عبد الواحد بن أحمد بن يحيى أحمليش الصنهاجي المتوفى سنة 1856، والذي دخل إلى فاس في حرمة مولاي علي بو غالب بباب الفتوح، ثم محمد بن محمد الحفيان الذي، في الغالب، يسكن فاس، وقد توفي سنة 1880 بقبيلة بونصار[62] بالريف التي دخلها برفقة والده. والجدير بالذكر أنه داخل هذه القبيلة يتواجد عدد من زوايا أحمليش، أهمها التي توجد بالقنطرة ويقوم عليها محمد بن الصديق أحمليش. بالإضافة إلى اثنتين أخرتين لأزورداز وتيفاح[63]؛ فمن خلال المعلومات التي توصلت إليها اتضح لي أن أولاد أحمليش ينتمون بشكل خاص للزاوية الناصرية، والبعض منهم للزاوية التيجانية.

خاتمة: خلاصة القول، لقد كان بفاس، منذ حوالي عشرين سنة، بعض من أولاد حمليش يسكنون زنقة بوكريم بحي زقاق الرمان داخل منزل في ملكيتهم. هؤلاء الخمليشيون أصولهم من الريف، ويتحدثون فيما بينهم اللغة الريفية. لقد عاينا أحد الخمليشيين، المدعو محمد بن الصديق من زاوية القنطرة وهو يحرض بعض الفرق الريفية لردع الإسبان سنة 1860. ومعلوم أيضا أنه في أيامنا هذه ظهر حمليشي آخر، ربما هو نجله، يضطلع بدور جد هام في أحداث الريف، ناهيك عن عدد من أفراد عائلته. فالظاهر أن حركة المقاومة من أجل الاستقلال، والتي تأججت بالريف في الوقت الراهن، ورغم كونها مدثرة بغطاء ديني شأن كل الوقائع بالبلدان الإسلامية، إلا أنها في عمقها ذات أبعاد سياسية بالنظر إلى الجانب الاقتصادي والمالي، فالشخصيات الدينة بالزيف تحبذ السير وراء هذه الحركة بدل القيام بقيادتها، مع الإصرار على تحين فرص الاستفادة دون الرضوخ لها.

لم يكن الغرض من هذا الاستعراض، التمحيص في حقيقة هذه الحركة أو أسبابها الخفية ولا نتائجها المحتملة، بل أردت فقط تسليط بعض الضوء من خلال موجز تاريخي على أن الريف كان دائما إقليما مغربيا خارجا عن السلطة المركزية مثل بقية الأقاليم، بعيدا عن نفوذ الدول المتعاقبة على الحكم. ويمكن أن أضيف هنا، أن الريف ظل دائما في حاجة لبقية التراب المغربي كي يوفر ضروريات العيش، وأن الاستقلال الذي يطمح إليه يستلزم نوعا من الاستقلال الاقتصادي الذي لا يمكن بدونه أن يعرف الاستقرار.

الهوامش:

(1) عنوان المقال وهوامشه من إنجاز المترجم
*M. E. MICHAUX – BELLAIRE, « Les Confréries Religieuses au Maroc, 1923 ». Collectif. Archives Marocaines, Publication de la mission scientifique du Maroc. 1927. Volume 27/ Paris Librairie Anginne Honoré Champion/ 1927. (من ص 191 إلى ص 209)

(2) هو أبو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي قتل سنة 961هـ، على يد السلطان محمد الشيخ السعدي بعد محاصرته لفاس ثم دخولها، (للمزيد من المعطيات يرجى العودة لكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لصاحبه أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1955. ج 4، ص 149 و 159 و 161)، وأيضا (نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صاحبه هو أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الإفراني الملقب بالصغير. طبعة 1888 بمدينة أنجي. نسخة غير محققة)

(3) ابن خير الدين بربروسا تولى الحكم ثلاث مرات. المرة الثالثة كانت في عهد السلطان سليمان القانوني. عرف بعدائه للدول الأجنبية خاصة فرنسا. للتوسع أكثر في هذا الباب يرجى الاطلاع على كتاب الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، تأليف علي محمد الصلابي. الطبعة الأولى، 2001، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الجزائر.

(4) كانت هذه المعركة خلال شهري مارس وأبريل من العام 1958، بمنطقة تيسة، شمال مدينة فاس. فتحالف عبد الله الغالب، رابع سلاطين السعديين، مع الإسبان ضد الأتراك الذين كان يقودهم حسن خير الدين باشا، ابن خير الدين بربروسا، وقد كان النصر للسعديين،(انظر كتاب الدولة العثمانية لمحمد الصلابي، م. س).

(5) يتعلق الأمر بكتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صاحبه هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الإفراني الملقب بالصَغير. طبعة 1888 بمدينة أنجي. نسخة غير محققة.

(6) يعتبر التاجر والديبلوماسي الفرنسي Roland FREJUS أول من اخترق هذه البلاد، منذ أكثر من قرنين. وقبل عشر سنوات من ذلك، كانت هناك امرأة ذكية تدعى Miss KEAPE، نصرانية، هي زوجة شريف وزان، انتقلت على فرسها من مليلة إلى طنجة على الطريق الساحلي. للمزيد من الإطلاع يرجى العودة إلى كتاب:
M. Le Capitaine Winkler, Auguste: Étude sur le Rif (Maroc), Imprimerie LA MAIGNERE, BIARRITZ, p3.

(7) يقصد مولاي رشيد السلطان العلوي، أحد مؤسسي سلالة الملوك العلويين بمنطقة تافيلالت سنة 1664م. فقد وقع نزاع إلى حد البغضاء بينه وبين أخيه السلطان مولاي محمد، بحيث لجأ مولاي رشيد إلى عرب أنـگـاد ثم الريف حيث قتل ابن مشعل اليهودي واستولى على ثروته، وانتهى به الأمر إلى حرب أخيه. هكذا قتل رشيد محمدا سنة 1075م.(للتوسع أكثر أنظر كتاب نزهة الحادي، م. س، ص 201 إلى 203) (خالد الناصري، الاستقصا، م. س، ص ج7، م. س. ص 28)

(8) ينتسب الدلائيون إلى قبيلة مجاط إحدى فروع صنهاجة من البرانس. وهم ليسوا من ذرية أبي بكر كما يزعم البعض. وإنما أصولهم من أبي طالب. سكنوا الصحراء قبل أن ينتقل المجاطيون إلى دلا ملوية العليا بين تونيفت وميدلت. تاريخ تأسيس الزاوية غير مضبوط، لكن المرجح أن ظهورها كان في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري (974هـ)، أسسها أبو بكر من محمد بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي. سكت المؤرخون عن منجزات هذه الزاوية وعن شأنها الكبير ومكتبتها الضخمة التي صادر جزء منها السلطان الرشيد العلوي لفائدة مكتبته الخاصة، ووقف جزءاً آخرمنها على مكتبة الجامع الكبير بمكناس....(انظر كتاب الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، للأستاذ محمد حجي. المطبعة الوطنية بالرباط 1964. رسالة دبلوم الدراسات العليا. ثم نزهة الحادي، ص 274)

(9) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي. كان من رجالات التصوف المشهود لهم بالجهاد ضد الإسبان والبرتغال. قتل سنة 1051. (انظر خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. س، ج6، ص 73 و 85)

(10)قد يتعلق الأمر هنا بشيخ عرب الشبانات في سنة 1659م

(11) أبو حسون السملالي هو حفيد ومؤسس زاوية سيدي أحمد بن موسى السملالي، كان ثائرا في أواخر عهد الدولة السعدية وظهور العلويين، لقبه "بودميعة" كان بسوس واستولى على سجلماسة ودرعة والأراضي التابعة لهما (انظر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. س، ج6، ص 78)

(12) هو أبو العباس أحمد الخضر ابن الولي الصالح سيدي عمر غيلان الحسني. ولد بمدشر الزراق من قبيلة بني جرفط بالعرائش. توفي سنة 1673م بالقصر الكبير ودفن به (ذكره صاحب كتاب "سل الحسام"، أبو الوليد النصاري، مطبعة دار الجبهة للتوزيع والنشر، بدون تاريخ أو عدد الطبعة). وقد قام المولى الرشيد بالقضاء على إمارة الخضر غيلان، زعيم المورسكيين/الأندلسيين بالقصر الكبير. أي من المكان الذي كان يوجه منه حملاته ضد الأوروبيين.--- (13) لم نعثر له على ترجمة

(14) تشكل قبيلة ثمسمان جزء من آيث عيسى واعمر الذين هم بطن قديم من آيث ورياغل (أورده موليراس في كتابه المغرب المجهول بحيث يوضح سبب تسمية هذه القبيلة... للتوسع انظر،
Mouliéras, Auguste (1855-....). Le Maroc inconnu : étude géographique et sociologique. 1895. P102.

(15) يتعلق الأمر، كما أوضحناه في الإحالة بالصفحة 4، بالسلطان مولاي رشيد المعروف بملك تافيلالت. أما صاحب الكتاب فهو:
Mouette Germain, Histoire des conquêtes de Moulay Archy. Paris, 1689 et in sources inédites de l'histoire du Maroc, 2Eme série, France

(16) كبدانة: قبيلة بربرية من حيث الأصول واللسان، بحيث أن أفرادها يسمون كل الأشياء بأسماء أمازيغية. وهي تحتل الجهة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، وتحدها سبخة بوعرگ غربا ونهر ملوية جهة الشرق وجهة الشمال. وتتميز بجبالها شديدة الوعورة. ينقسم كبدانة إلى ستة بطون: أولاد الحاج، البركانيين، شراويط، الهدارة، البوعليتيين، وأولاد داود. أماDUVEYRIER فيقسمهم إلى أربعة بطون هي: إيشرويدن(آيث تشرويث)، آيث إيبوكفير(آيث بو حفير)، آد داود(أولاد داود)، وإزخانن(الزخانن). (وللتوسع أكثر يمكن الرجوع إلى كتاب وصف إفريقيا لمحمد

بن الحسن الوزان، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية 1983، دار الغرب الإسلامي، لبنان. ثم **Le Maroc inconnu ; p12**)

(**Document pour servir à l'étude du Nord–Ouest Africain. P 235/237/238**).

(17) لم نعثر له على ترجمة

(18) إنه هارون بن مشعل، كانت له قصة مع الرشيد العلوي (أورده صاحب كتاب نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، مكتبة الطالب الرباط، 1982، عدد الطبعة غير مثبت) ثم حسب رواية لويس فوانو هو أحد اليهود من بني عبد السيد أحد فروع قبيلة بني وريمش، كان يمتلك قصبة وثروة كبيرة داخل بني يزناسن بفضل ما كان يتمتع به من سلطة وهيمنة حتى على المسلمين... صادف ذات مرة أن خرج ابن مشعل لغاية يقضيها فصادف امرأة تحمل طفلة فطلب منها ماء فرفضت فما كان منه إلا أن قتل الطفلة، فأخذت الأم المكلومة أشلاء طفلتها مستغيثة بقبيلتى أولاد إبراهيم وروسما (روسما وأولاد إبراهيم من اقوى فروع بني يزناسن، يترلون بتزاغين عند الجهة الشمالية لزكزل) فقتلوا ابن مشعل داخل سوق احد بنى عمير أمام الملأ (أنظر كتاب،

Louis Voinot, Oujda et l'Amalat (Maroc), Edition LA PORTE, Imp AMAARIF ALJADIDA, Rabat 2010, p327

(19) اختلف العديد من المؤرخين في تعريف سهل أو فحص أو قفر أنـگـاد، حيث ورد ذكره بهذا الإسم عند الزهري والعبدري وفوانو (انظر هامش ترجمة كتاب م. بونجون، السجع قبيلة بدوية بين البربر، ترجمة ذ. محمد لغرايب، مطبعة ربانيت، 2008، الرباط، ط1، ص. 18)

(20) إنه ولد أخيه أحمد بن محرز بن الشريف (ت1658م). ثار ضد عمه المولى إسماعيل إلى جانب أهل فاس ثم اخذ بيعه أهل مراكش لكن عمه السلطان إسماعيل أخمد ثورته، وقضى عليه وعلى من معه (انظر كتاب نزهة الحادي، ص 305) و(الاسقصا، ج7، ص47و49)

(21) يعتبر كل من (**Roland Fréjus**)، و **Duveyrier**، أول من دخل بلاد الريف من الأوروبيين. الأول دخلها سنة 1666. والثاني سنة 1888. (أنظر كتاب:

(Lacroix, Napoléon. Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain., I. Régions limitrophes de la frontière algérienne. Le Rif. Les Djebala.. 1894)

. ويبدو بالنسبة لفريجوس، انه نفس السنة التي التقى فيها بمولاي رشيد وقدم له رسالة من الملك لويس الرابع عشر، بتازى. لا نعرف فحوى الرسالة، لكن يبدو أن فرنسا ظلت دائما مهتمة بالشأن المغربي سعيا منها في تثبيت قدمها بالمنطقة أمام منافسها الإسباني. هذا يدفعنا للقول أن فرنسا أمدت مولاي رشيد بكل الدعم للوصول إلى سدة الحكم

(22) لويس الرابع عشر هو احد ملوك فرنسا المرموقين (1638م–1715م). اهتم كثيرا بالأدب والفن. هو الذي بنى قصر فيرساي

(23) المقصود هو مدينة المزمة أو الحسيمة. وبهذا الإسم، أي البوزيم، سميت الشركة التي أسسها المبعوثان الملكيان، فريجوس وميشال، إلى سلطان المغرب. (**Compagnie Albouzème) (Leiden : E. J. Brill, Encyclopédie de l'ISLAM, Livraison 5et 6, Editions, G.P. MAISON NEUVE et LAROSE, Paris, 1982**)

(24) هو القائد عمر بنحدو الريفي البطيوي نسبة إلى قبيلة بطوية. كان قائدا على القصر الكبير ثم منطقة الشمال بعد مقتل القائد لخضر غيلان. اعتبره المؤرخ محمد بالعياشي المكناسي في كتابه "زهر البستان في أخبار أحوال مولانا زيدان " (مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط الرقم 3274 وبالخزانة الوطنية بالرباط الرقم 1252) من أكبر قواد السلطان مولاي إسماعيل.

(25) قد يقصد الكاتب هنا نهر نكور، وهي ذات التسمية التي أخذتها إمارة نكور، تقع بين نهرين، نكور وغيس. عند أبي عبيد البكري، المتوفى سنة 487هـ،المغربفيذكربلادإفريقياوالمغرب،وهوجزءمنفيكتابالمسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي القاهرة)،(ثم عند عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، 2000، ج7. ص 176، وهذه من تلك، فقد سميت الإمارة باسم النهر الذي يخترقها، نهر نكور. غزاها المجوس سنة 224هـ، ثم عاد سعيد بن إدريس ليحكم قومه مدة 37سنة. كانت بها أبواب عدة وحمامات، حتى خربها يوسف بن تاشفين... (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب– ابن عذاري المراكشي. تحقيق ج.س. كولان، وإ. ليفي بروفانسال. ج1. ط3. 1983.دارالثقافة. بيروت. ص176). (تناولتها كتابات عدة منها، رجب محمد عبد الحليم: دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125هـ. 455هـ). دار الثقافة للنشر والتوزيع. المقدمة. (الطبعة لا تحتوي على معلومات أخرى سوى أن المؤلف أستاذ مادة التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية. جامعة القاهرة).--- (26) أحد دواوير تمسمان.

(27) لم نعثر على تعريف لهذا المكان بالريف، بل وجدنا أن مدينة سواكين توجد شرق السودان على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر

(28) لم نعثر لها على تعريف.--- (29) بلدة بجنوب فرنسا. وهناك أيضا قصر مارلي، والميدان الوطني مارلي الملكي، وغابة مارلي ...

(30) جزيرة البرهان أوالبران، ارض مغربية يعود تاريخ احتلالها من طرف الإسبان إلى سنة 1848. تقع في عرض البحر الأبيض المتوسط على بعد 56 كلم شمال رأس ورك الواقع بشاطئ قبيلة بني شيكار بناحية الكارت.

(31) القائد عمر بنحدْو التمسماني أول عامل يعين على جهة جبالة والفحص، أي غمارة سابقا، وذلك سنة 1672م. وعائلة بن حدو مشهود لها بالجهاد والشرف والعلم والبأس. لكن سيف الغدر طال هذه العائلة حين أقدم عبد الله من الأسرة العلوية، على قتل الباشا أحمد الريفي الذي كان يسعى للصلح بينه وبين أخيه المستضئ، المتنافسين على العرش ... فالمستضيء لما فر من فاس استنجد بالباشا أحمد الريفي.... هذا وقد استطاع علي بن عبد الله الريفي الحمامي التمسماني استرجاع العديد من الثغور المغربية، منها المهدية سنة 1681، وطنجة سنة 1684، والعرائش سنة 1689، وأصيلة، وحاصر سبتة سنة 1694... توفي سنة 1713.--- (32) لم نعثر له على ترجمة، ربما المقصود أحد أفراد عائلة بن حدو الريفي.

(33) موسم العنصرة يكون عادة في اليوم السابع من شهر يوليوز، وهو من المظاهر الاحتفالية الموروثة عند عددا من القبائل المغربية بمناسبة جمع المحصول الفلاحي، وبالتالي التعبير عن الفرحة. فيكون الموسم مناسبة لتلاقي القبائل والتلاحم وإقامة الأفراح والأعراس

(34) هو أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي الحمامي التمسماني، قائد بلاد الهبط على عهد السلطان المولى إسماعيل. وهو القائد الذي حرر عددا من الثغور المغربية المحتلة، وحاصر مدينة سبتة. فقد حرر المهدية من يد الإسبان سنة 1681، إلى جانب القائد عمر بن عبد الله بن حدو الريفي البطوي،

(35) علي زين العابدين بن إسماعيل (1692 – 1762)، دام حكمه ستة أشهر فعزله أخوه السلطان عبد الله. أما المستضيء فحكم لفترات متقطعة بين 1738و1748، فأطاح به أخوه عبد الله هو الآخر. لقد كان الصراع على أشده بين أبناء السلطان إسماعيل حول من يتولى العرش، لهذا كان الواحد منهم يطيح بالآخر.

(36) أولاد سيد الشيخ، أو البوشيخيون، يزعمون الانتساب لأبي بكر الصديق. ينحدرون من الجزائر التي دخلها خلال القرن 14، تحت إمرة معمر بن سليمان العالية، ثم خلفهم عمر سيدي سليمان بن أبي سماحة، ومن بعده حفيده عبدالقادر بن محمد المكنى " بسيدي الشيخ" . فحمل خلفه تسمية أولاد سيد الشيخ إلى الآن، وهم موزعون في تراب العيون سيدي ملوك عند واد بورديم. ومنهم الطيب بوعمامة الذي استقر بقصبة العيون... ونجدهم أيضا بين قبيلة آيث بويحيي ويعرفون باسم إيبوشيخن.....

(37) عرفت هذه الحرب عند الإسبان بالافريقية، وقد دامت حوالي سنة- أي من 1859 إلى 1860، بتطوان. وقد جاءت هذه الحرب والجيش السلطاني لم ينهض من هزيمة إيسلي سنة 1844، فزادت خسارته ضعفين، فكانت الخسائر جسيمة في الأرواح وما تلاها من تبعات جعلت الإسبان يستنزفون اقتصاد المغرب ويتوسعون على حساب سبتة ومليلة... أما مولاي العباس فهو شقيق السلطان الذي تولى قيادة الجيش المغربي في حربه الخاسرة ضد إسبانيا مقابل الجنرال ليوبولدو أودنيل رئيس المجلس الحربي الإسباني. هذا وقد شهدت ذات السنة وفاة السلطان مولاي عبد الرحمان بمكناس يوم 28 غشت 1859م.

(38) بلدة سنادة تقع في المجال الترابي لمدينة الحسيمة، تعمرها قبيلة آيث يطفت الأمازيغية. وكلمة سنادة في التداول المحلي هي جنادة أي الجنود الذين استقروا بالقصبة التاريخية التي بناها السلطان مولاي إسماعيل. تتميز بتضاريسها الجبلية، الشيء الذي يجعلها غنية من حيث الموارد المائية، وبها نهر يحمل اسم سنادة.

(39) المقصود بالحملة هنا هو تلك "الحركة" التي كان يقوم بها السلطان لإخضاع القبائل وتجديد بيعتها واستخلاص الضرائب منها مهما كان قدرها، لأن الأمر الأساسي عند المخزن هو ضمان تبعية هذه القبائل وخضوعها لدار الملك.

(40) كانت معركة سيدي ورياش سنة 1896، بين مجاهدي الريف والإسبان من أجل استرجاع مليلة، انتهت بتوقيع اتفاقية بين المخزن والإسبان من أجل تأديب قبائل قلعية والتنكيل بهم، وبناء جدار عازل، وهلاك عدد كبير من أبناء الريف دون أن يحرك المخزن ساكنا...

(41) قد يتعلق الأمر هنا بأبي داوود مزاحم بن علي بن جعفر بن سليمان بن علي بن ورتد بن يصليتن بن البطوي. فمن المعلوم أن أول إشعاع ديني كان مع الشيخ أبي داوود بجبال تمسمان، وقد أسس رابطة ثوغلال، ومن بعده تلميذه علي بن حسون الأذوزي بمنطقة بقيوة خلال القرنين 12 و13 (أورده صاحب كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، عبد الحق بن إسماعيل البادسي)

(42) الصحيح هو مركاب بن عيسى البلندي، وبلند هو ابن يصليتن من بطوية سكن بعقبة تابلخاشت الواقعة بين بلدي بلند وتلمسان، تتلمذ على يد الشيخ أبي داود...(انظر عبدالحق ابن إسماعيل البادسي، م.س. ص 56.--- (43) يقصد حفظة القرآن الكريم "الطلبة".

(44) المقصود هنا كتاب " المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف". تأليف عبد الحق البادسي أرخ فيه لرجالات التصوف بشمال المغرب ما بين منتصف القرن 6هـ/12م و بداية القرن 8هـ/14م (انظر الطبعة التي حققها أحمد أعراب، المطبعة الملكية الرباط، 1982)

(45) الشاذلية طريقة صوفية، تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي (571 هـ/656 هـ). من أهم مبادئها التوبة والإخلاص والذكر والتيه والخلوة. يزعمون النسب الشريف كبقية الزوايا

(46) الجزولية من الطرق الصوفي الذائعة الصيت. أسسها سيدي محمد بن سليمان الجزولي، شيخ الطريقة الشاذلية الجزولية بالمغرب، وهو صاحب "دلائل الخيرات"، توفي بأفوغال سنة 870هـ/1465م (أبو القاسم الزياني، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، تحقيق رشيد الزاوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الطبعة الأولى 2008، مطبعة الأمنية الرباط، ص48.

(47) يعتبر مولاي عبد السلام بن مشيش (1163 – 1228) من رجالات التصوف، فهو من الشرفاء العلميين نسبة إلى جبل العلم، أحد جبال الريف قريبا من مدينتي شفشاون وتطوان. ومن تلاميذه أبو الحسن الشاذلي.

(48) قبيلة أمازيغية تستقر في حوض واد ورغة. وهي ذات أصول أمازيغية من نفزاوة الأمازيغ البتر، كما هو عند ابن خلدون، م.س.

(49) إنه الشيخ الولي أبوالحسن علي بن داوود المرنيسي. كان مريدا للشيخ بوشتا بفشتالة. أسس زاويته بمرنيسة، وقد كانت له كرامات.

(50) هو مولاي بوشتا الخمار. توفي سنة 1588. يعود نسبه الشريف إلى الأدارسة، وقد استقر بقبيلة فشتالة بتاونات، وبها دفن.

(51) هو نجل سيدي علال الحاج البقال مؤسس الزاوية البقالية بالحرايق بقبيلة غزاوة. وهو من تلاميذ مولاي بوشتا الخمار بفشتالة

(52) محمد الشيخ المأمون هو احد سلاطين الدولة السعدية. تولى الحكم بعد انقلابه على أخيه أحمد الأعرج سنة 1540 إلى 1557. كان كثير الاهتمام بالعلم، وقد قضى على الوطاسيين ورفض الدعاء للسلطان العثماني سليمان القانوني فوق المنابر، فبعث سليمان من يقتله، فقتل غدرا (ذكره صاحب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري)

(53) مكان بتراب جبالة، كما أن هناك "لحرايـگـ" بتراب قبيلة آيث بويحيي بحوض كرط بالريف الشرقي.

(54) غزاوة التي يذكرها الكاتب تقع ضمن تراب جبالة، شمال وزان. أي بالريف الغربي. وقد ذكرها ابن خلدون باسم اغصاوة أحد بطون غمارة من المصامدة.... وغزاوة هي قرية بغزاوة، كانت مقرا للزاوية البقالية التي أسسها الشيخ علي الحاج بن البقالت.981 – 1573، بدعم من السلطان السعدي الغالب بالله . وقد عرف عن الزاوية البقالية دعمها لمحمد بن عبد الكريم الخطابي إبان حرب الريف رغم ما عرف عن هذه الزاوية من تلقيها لدعم سلاطين الدولة السعدية.--- (55) أوغيست موليراس صاحب كتاب المغرب المجهول، خص به منطقة الريف نهاية القرن 19

(56) نسبة إلى المكان المسمى قصبة سنادة بقبيلة بني يطفت الريفية. عرفت كذلك باسم "ثرا نباديس" أي عين باديس، وهي عين تزود باديس بالماء الشروب. بناها السعديون وكانت مستقرا للشرفاء الوزانيين

(57) هو عبد العزيز بن عبد الحق التباع. من سبعة رجال مراكش. توفي سنة 1508م. عالم صوفي. نسبه غير معوف. والمعلومات عنه قليلة جدا. سار على نهج الطريقة الشاذلية عن الجزولي. سمي بالتباع لكثرة أتباعه (أنظر حسن جلاب في كتاب "سبعة رجال")

(58) إليه تعود تسمية قبيلة اولاد يدي بن داوود، وهي قبيلة عربية ضمن قبائل الشاوية. يرد أفراد القبيلة نسبه إلى الأدارسة. أما بعض المؤرخين فينسبونه إلى صنهاجة . دفن في بلدة أرزاك بتادلة. ومن الروايات ما تقول أنه قدم من الساقية الحمراء.

(59) مدينة بالقرب من سطات شيدها الرومان فحملت اسم قيصر.--- (60) عاش في أولاد حريز ودفن في منطقة كروطة بأولاد صالح.

(61) هو كتاب "سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس"، لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني

(62) ربما يتعلق الأمر هنا بقبيلة بني بونصار، أو آيث بونصر، التي تشكل جزء من اتحادية قبائل صنهاجة السراير، الأمازيغية الأصل، والعربية اللسان. تسكن بلاد الريف.--- (63) لم نعثر لهما على تعريف.

Abstract: *Based on the book "The religious oratory in Morocco", 1923, which was written by Edouard Michaux-Bellaire, This article is about the crusader extension on Rif lands, and the arising of the religious oratory.*
The article represents the objectives of the crusades and the conflict that was between the Spanish and the Portuguese, two catholic countries, in order to gain the wealth of those coasts. In addition, the text also reflects the issues that the first of Alaoui's line faced when he was seeking the reign.
There is a very specific description in this article, concerning how this man, Moulay Rachid, finds himself in the eastern side of Morocco, in Kabila of Kabdana exactly, looking for financial and human sources in order to the take the lead, and get the reign. There is also a rectification of some given facts.
At the final part of the article, there is a study about the arising of the religious oratory in the Rif lands: from where it starts, how it's made, whom, among the Kabilas, who did support this arising, what was exactly its main role, and who did serve the religious oratory. These questions and others will be answered during the whole article. And there will be a self-approach between what was said, in the book, and some personal facts and conclusions.